﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ [البقرة: 113]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أنْ أبطلتِ الآياتُ السَّابقةُ ادِّعاءَ اليهودِ والنَّصارى قَصْرَ دخولِ الجنَّة عليهم، وبيَّنت أنَّ دخولَ الجنةِ لن يكونَ إلّا للمسلمِ الحقِّ، شرعَتْ هذه الآيةُ ببيانِ تناقُضِهم فيما بينهم؛ لتكون دليلًا على دحضِ ادِّعائهم، وبيانِ زيفِه، فهي من قبيل التَّناسُب في بيانِ بطلانِ حُجَّةِ الخصمِ من كلامِه، وهذه طريقةُ القرآنِ الحِجاجيَّة، من أيسَرِ الطُّرُقِ وأقواها منهجًا، "ثمّ شبّه بهم في نحو هذا القول الجهلةَ ... وفي ذلك غايةُ العيبِ لهم؛ لتسوية حالهم مع علمهم بحال الجهلة"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾: اسمٌ عَلَم على بني إسرائيل، "وهم قومُ موسى عليه السلام، ويُطلقُ عليهمُ العبرانيّون"[2]، واشتقاقُ الاسم من هادُوا أي: تابُوا[3].

وهي تسميةٌ حقيقيّةٌ لهم؛ فقد سُمُّوا بذلك لكونهم أولاد يَهُودَا بنِ يَعقُوبَ، أو لكونهم هادُوا وتابُوا عن عبادة العِجْل[4] وكان في الأصل اسمَ مدح، ثمّ صار بعد أن نُسخَتْ شريعتهم لازمًا لهم، وإنْ كان لا يعطي معنى المدح[5].

2) ﴿يَتۡلُونَ﴾: فعل مُضارع من الأفعال الخمسة مُسندٌ إلى الجماعة، جذره من التّاء واللّام والواو، ومعناه "الاتِّباعُ، يقالُ: تَلَوتهُ إذا تَبِعتُهُ، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ لأنَّهُ يُتْبِعُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/115.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (هود).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/13.
(5) الراغب، المفردات: (هود).

آيةً بعدَ آيةٍ"[1]، أو الكلمة بعد الكلمة أو الحرف بعد الحرف، وهو المعنى المراد في الآية، وهو أنّ اليهود والنّصارى يَتْلُونَ الكتاب، لكنّهم لا يعملونَ به.

3) ﴿مِثْلَ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد جذره اللُّغويّ (مثل) ومعناه "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدر ونحوِه حتّى في المعنى، ويُقال ما لهذا مَثيلٌ"[2].

والوارد في الآية بمعنى المشابهة بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ أي: قول هؤلاء الجهلة يشبهُ قولَ اليهودِ والنّصارى فهو صادرٌ أيضًا عن الجهل.

4) ﴿يَحۡكُمُ﴾: فعلٌ مُضارع، الجذر اللُّغويّ منه (حكم)، ومن معانيه المشهورة ذات العلاقة بالآية ههنا: القضاء، فيحكم بمعنى: يقضي[3].

5) ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: اسم من أسماء الآخرة، الفعل منه (قام يقوم)، "ويُقال هذا قوام الأمر وملاكُه"[4]، وهو اليومُ الّذي يقومُ فيه النَّاس لربِّ العالمين فهو "يومُ البعث، يوم يقوم فيه الخَلْقُ بين يَدَي الحيِّ القيوم"[5].

6) ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: فعل مضارع مُسندٌ إلى واو الجماعة، الماضي منه (اختلفَ)؛ وزنه (افتعلَ)، وجذره اللُّغويّ (خلف) و "الخاءُ واللَّامُ والفاءُ أُصولٌ ثلاثةٌ أَحدُها أَنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَهُ، والثَّاني خِلافُ قُدَّام، والثَّالثُ التَّغيُّرُ"[6].

وأمّا الوارد في الآية "فمنَ البابِ الأوّلِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يُنحِّي قولَ صاحبِهِ، ويُقيمُ نفسَهُ مُقامَ الَّذي نحَّاهُ"[7] وهذا المعنى ينطبقُ انطباقًا تامًا على اليهود والنّصارى مثلما ورد في الآية؛ فاللّٰهُ يحكُمُ يومَ القيامة في اختلاف اليهودِ والنّصارى.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صوَّرتِ الآيةُ الخلافَ بين اليهودِ والنَّصارى، فقد ادّعت اليهود أنّ النّصارى ليست على شيءٍ لإثباتِ الحقِّ لها، وهو ادّعاء النَّصارى نفسُه، وهذه الآية "نزلَت في يهودِ أَهلِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(2) الخليل، العين: (مثل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قام).
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة: (قام).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).

المدينةِ ونصارَى أَهلِ نجرانَ ... لـمَّا قدِمُوا على رسولِ اللّهِ ﷺ أتاهمْ أَحبارُ اليهودِ فتناظروا حتَّى ارتفعَتْ أَصواتهم"[1]، واتّهمت كلُّ فرقة الأخرى أنّها ليست على شيءٍ من الدِّين الحقِّ الّذي يُعتدُّ به؛ فأنزلَ اللّهُ هذه الآية.

ثمّ عرّضت بهم الآيةُ بأنْ صرَّحت بتلاوتِهم للكتاب، أي: التّوراة والإنجيل، والكتابان مكمّلٌ أحدُهما للآخر، ومع ذلك فكلُّ طائفة كفّرت الأخرى، ثمَّ شبَّهتِ الآيةُ صنيعَهم هذا بصنيع الجهلةِ، بيانًا لحالِهم، وكشفًا لحقيقةِ أمرِهم، وخلا ذلك فاللّه تعالى هو الحَكَمُ الفَصلُ يوم القيامة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ القول على القولِ:

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾؛ "لزيادة بيانِ أَنَّ المُجَازَفَةَ دَأْبُهُم، وَأَنَّ رَميَ المُخالِفِ لهم بأَنَّهُ ضَالٌّ شِنشِنَةٌ قديمةٌ فيهم، فهُم يَرمُونَ المُخالِفينَ بالضَّلالِ لمُجَرَّدِ المُخالفَةِ، فقديمًا رمَتِ اليهودُ النَّصارى بالضَّلالِ ورمَتِ النَّصارى اليهودَ بمثلِه؛ فلا تَعجبُوا مِنْ حُكمِ كُلِّ فريقٍ منهُم بأَنَّ المُسلمينَ لا يدخُلُونَ الجَنَّةَ، وفي ذلك إنْحاءٌ على أَهلِ الكتابِ وتَطميعٌ لخواطرِ المُسلمينَ ودَفعِ الشُّبهَةِ عَنِ المُشركينَ بأَنَّهُم يَتَّخذونَ مِنْ طَعنِ أهلِ الكتابِ في الإسلامِ حُجَّةً لأنفُسِهم على مُناواتِه وثَباتًا على شِركِهم"[2].

بيانُ واقعِ الأقوالِ المتناقضةِ الصَّادرةِ عن مُتكلِّمٍ واحد

فائدةُ تأنيثِ الفعلِ المُسندِ إلى الفاعل:

صدّرتِ الآيةُ الفعل ﴿وَقَالَتِ﴾ بتاء التأنيث، وأسندَتهُ إلى ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾؛ لأنّه على تقدير جماعةٍ أو فرقةٍ أو طائفةِ اليهود[3]؛ لبيانِ أنَّ الصَّادرَ

بيانُ أثرِ اللَّمسَةِ البيانيَّةِ في الكشفِ عن قيمةِ العدلِ في نظمِ القرآن

(1) النّيسَابوري، أسباب نزول القرآن، ص: 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/675.
(3) السّيرافي، شرح كتاب سيبويه: 4/23.

عنهم صادرٌ باعتبارِهم جماعةً، وأنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ عن جميعِهم بل عن مجموعِهم، وهذا من لمسات القرآنِ البيانيَّةِ، التي تُنبئ عن العدلِ في التَّعاملِ مع المخالفِ، ومن النَّاحية الصرفيَّة؛ فاليهود اسمُ جنسٍ جمعيٍّ، وهو "من الجموعِ التي بينها وبين واحدِها ياءُ النِّسبة"[1]؛ فالمفردُ من اليهود يهوديّ بإضافة ياء النسبة[2]، وقد جاءَ إسنادُ الفعلِ الملحَق به تاء التَّأنيثِ أربع مرَّاتٍ في القرآنِ الكريم[3].

صُدُورُ القولِ عن فرقةٍ، لا ينفي صُدُورَها عن المجموعِ:

معنى الألف واللّام في كلمةِ اليهود والنَّصارى

تحتملُ الألفُ واللَّام في كلمةِ اليهود والنَّصارى أن تكونَ للجنسِ؛ ويكون "المراد عامَّة اليهودِ، وعامَّة النّصارَى؛ فهذا منَ الإخبارِ عنِ الأممِ السّالفةِ"[4]، وتحتمل أن تكونَ للعهد الحضوريّ، ويكون "المرادُ يهودَ المدينةِ ونصارَى نجرانَ، حيثُ تمارَوْا عندَ الرَّسولِ وتسابُّوا"[5]؛ كما هو واردٌ في سبب النُّزول، ولا تعارضَ بين الاحتمالين؛ فإنَّ ما صدرَ عن يهود المدينةِ ونصارى نجران، هو الصَّادرُ عن مجموعِ اليهودِ والنَّصارى؛ فهو غير خاصٍّ بهما.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿لَيْسَتِ﴾:

بيانُ شدَّة العداوة بين الفريقين، وكشفٌ عمَّا يتمنَّاه كلُّ فريقٍ للآخر

التَّعبير بـ(ليس) في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ - وهو فعلٌ يُستعملُ لنفي الحالِ والاستقبالِ -؛ لبيانِ شدّةِ العِداء والمناكفة بين اليهود والنّصارى؛ فهم يحكمون على النَّصارى وقت نزولِ الآيةِ بأنَّهم ليسوا على شيءٍ، ويتمنَّون ألّا يكونوا في المستقبلِ أفضلَ حالًا، وهذا حالُ كلِّ فريقٍ، وموقفه من الآخر.

(1) السّيرافي، شرح كتاب سيبويه: 4/23.

(2) ياء مشدّدة مكسور ما قبلها تُزاد على الاسم، ولها هذه الفائدة، وهي تمييز المفرد من اسم الجنس الجمعيّ؛ إمّا بالياء مثل: مصر مصريّ ويهود يهوديّ، وإمّا بالتّاء مثل: تمر تمرة وكلم كلمة، يُنظر: الحملاوي، شذا العرف، ص: 98-97.

(3) وذلك في: سورة البقرة: 113، وسورة المائدة: 18، و67، وسورة التّوبة: 30.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.

بلاغةُ استعمالِ الحرفِ القرآنيّ:

الـحـذرُ في التَّعـامـلِ مع المتـطـرِّفـين في أحكامِهم على المخالفين

دلَّ حرفُ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ في كلام الفرقتين، على نفي تمكُّنِ الفريقِ المُخالفِ من أيِّ شيءٍ، وبلاغةُ الاستعمالِ تكمنُ في أنَّ المخالفَ لا يثبُتُ على شيءٍ مهما قلَّ أو دقَّ ممَّا يَصحُّ وصفُه بأنَّه شيءٌ من الحقِّ، وهذا يدُلُّ على مدى التَّطرُّفِ في التَّعاملِ مع المخالفِ لدى الفرقتين، ومنه يُؤخَذُ منهجُ الحذرِ في التَّعاملِ معهما ومن أحكامهما في الآخرين؛ لأنَّها قائمةٌ على التَّطرُّفِ الفكريِّ، وإلغاءِ الطَّرفِ الآخر، بخلافِ منهجِ القرآنِ القائمِ على قاعدةِ العدالةِ: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾ [آل عمران: 113].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(شَيءٍ):

صِـدقُ أهـلِ الـبـاطـلِ في دعواهم لا يعني صدْقَ منهجِهم في الوصولِ إليها

التَّعبيرُ بلفظة (شيء) يُوحي بالتقليل والتحقير؛ تنبيهًا على أنّ النّصارى ليستْ على شيءٍ من الحقِّ، ولو كان نَزْرًا يسيرًا، وهذا هو الخبرُ الّذي أرادت اليهودُ بيانَه، أي: ليستِ النّصارى "على شيءٍ يصحُّ، ويُعتدُّ به، وهذه مبالغةٌ عظيمةٌ، وهو كقولهم: أقَلُّ منْ لا شيء"[1]، وكلاهما صادقٌ في اتّهامِه للآخر[2]، مع مراعاة أنّ نفيَه الحقّ عن الآخرِ لا يُثبت الحقَّ لنفسِه من مفهوم المُخالفة، بل كلاهما على باطلٍ، يؤيدُه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 68].

إعطاءُ المتلقِّي سَعَةً في الاستنباط منَ السِّياق، ما لا يُعطيه التَّعيينُ:

بـلاغـةُ حـذفِ الصِّفةِ

حُذِفتْ صفةُ (شيءٍ) في قوله تعالَى: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ من بابِ الحذْفِ على تقدير: "على شيءٍ يُعتدُّ به في الدّينِ، فيكون منْ باب حذف الصّفة"[3]؛ لأنّ تعبيرَهم بـ(شيء) من باب التَّقليل والتَّحقير،

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 8/4.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 1/471.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/565.

وهو كقولهم: "سِير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنَّ هذا إنّما حذفت فيه الصِّفة ... أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التَّطويح والتَّطريح والتَّفخيم والتَّعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل"[1]، وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: 46] أي: (الناجين) بحذف الصِّفة؛ لأنّه بغير ذلك يخالفُ الحقيقةَ، ويقدحُ في نوح عليه السلام؛ ولأنّه ابنه حقيقةً لا مجازًا، وكقول العَبَّاسِ بنِ مِرداسٍ:

وَقَد كُنْتُ فِي الحَربِ ذَا تُدْرَأ *** فَلَم أُعطَ شَيئًا ولم أُمْنَعْ

" أَيْ: لمْ أُعطَ شيئًا نافعًا مغنيًا؛ بدليل قولِه: ولم أُمنعْ"[2].

دلالةُ مقابلَةِ القولِ للقولِ بالألفاظِ نفسِها:

الإفصاحُ عن تبادُلِ الاتِّهامِ بعيدًا عن الإنصافِ والعدالةِ

قابلتِ[3] الآيةُ القولَ بالقولِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ فنجد أنَّ الآيةَ أعادتِ الجملةَ بألفاظِها مفصِحةً عن تبادل الاتّهام بين الفريقين، والقولُ الرَّادُّ يُثبتُ تساوي الفريقين في مجانبة الحقِّ مع مراعاة المتقدِّم، ويُثبتُ أنَّ الرَّدَّ خالٍ من الإنصافِ لإتيانِ الرَّادِّ بألفاظِ المردود عليه نفسِها.

الكشفُ عن طبائعِ أهلِ الأديانِ، وبيانُ ترتيبِ أقوالِ المختصِمين:

سِرُّ تقديمِ اليهودِ على النَّصارَى

قُدِّمَ ذكرُ اليهودِ على النَّصارى؛ لأنّهم أقدمُ زمنًا منَ النّصارى؛ "فشريعةُ اليهودِ أقدمُ من شريعةِ النَّصارى"[4]؛ لأنَّ التوراةَ أصلٌ للإنجيلِ[5]، واليهودُ أشدُّ الخَصمَين عداوةً ولجاجةً وحجاجًا، وبناءً على ذلك وما يقتضيه ظاهرُ النَّظم، أنّ اليهودَ هم من بدأَ الاتِّهامَ، والنَّصارى ردُّوا عليهم ادِّعاءهم، فيكون التَّرتيبُ كاشفًا لخصومةٍ تاريخيَّةٍ.

(1) ابن جنّي، الخصائص: 2/373.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/676.

(3) معنى المقابلة عند البلاغيين: "أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمّ يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب"، كقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157]، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 304.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/201.

(5) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/353.

سِرُّ إيثارِ أن تكون الحالُ جملةً لا مفردًا:

قـوَّةُ الجملةِ الحاليَّةِ في التَّنبيه على عجيبِ هيئةِ المتَّصِفِ بها

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ أن تكون الحالُ جملةً، وهي قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لا مفردًا؛ "لأنَّ دلالتهَا على الهيئةِ أقوى من دلالةِ الحالِ المفردَةِ"[1]، إذ الحالُ المفردةُ تؤدِّي وظيفةَ الصِّفةِ حينما تكون هيئةً غيرَ ثابتةٍ، بينما الجملةُ الحاليَّةُ تُعطي قوَّةً في الهيئةِ، تكمُنُ في التَّنبيه على تلك الصِّفة، ولو قال: (تالين) لم يُفِد إلَّا الإخبارَ عن الهيئةِ، وهي في هذه الآيةِ تُعطي معنى التَّعجُّبِ من حال تلاوة اليهود للتَّوراةِ والنَّصارى للإنجيل، دون أدنى تأثُّرٍ وانتباهٍ لمَا يقعون فيه من التَّناقُضِ والتَّعارُض؛ وكتبُهم ليس فيها هذا الاختلاف[2].

معنى الألفِ واللَّام في كلمة الكتاب:

براعةُ السِّياقِ القرآني في احتمالِ العمومِ على أبلغِ وجهٍ بيانيٍّ

اختلفَ المُفسِّرون في معنى التَّعريف، فقيل: هي للجنس، وهذا مذهب الزَّمخشَريّ، ومعناها عندَه: "أيْ: قالوا ذلكَ، وحالهم أنّهم من أهل العلم والتّلاوةِ للكتبِ"[3]، ومَوضعُ التَّعجُّبِ أنَّه لا يصحُّ لمتعلِّمٍ يدَّعي المعرفةَ والعلمَ عمومًا، فضلًا عن عموم كتب الدِّيانةِ أن يجهلَ حقيقةَ الآخرين.

وقيل: هي للعهد، وهذا مذهبُ ابن عطيَّة، "ووَجهُ التَّعجُّبِ على هذا الوَجهِ أَنَّ التَّوراةَ هي أصلٌ للنَّصرانيَّةِ، والإنجيل ناطقٌ بحَقِّيَّتِهَا؛ فكيف يَسُوغُ للنَّصارَى ادِّعاءُ أنَّها ليسَتْ بشيءٍ كما فعلَتْ نَصارَى نَجرانَ؟! وأنَّ التَّوراةَ ناطقةٌ بمجيءِ رُسُلٍ بعد مُوسى فكيف ساغَ لليهودِ تَكذيبُ رسولِ النَّصارى؟"[4].

والصَّحيح أنَّ الوجهين حريَّانِ بالقبولِ، فأهلُ الكتاب من اليهود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/676.
(2) البَغويّ، معالم التّنزيل: 1/138.
(3) الزَمخشريّ، الكشّاف: 1/312.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/677.

والنَّصارى ولاسيَّما أهل العلمِ فيهم يقرأون التَّوراةَ والإنجيلَ وغيرَهما من الكتبِ، والسِّياقُ يحتملُ الوجهين، وقد جاء في الآيةِ قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۗ﴾.

سِرُّ اختيارِ التِّلاوةِ دونَ العلم:

التَّهكُّمُ بمَنْ يَتلو الكتَابَ بغير فائدَةٍ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختيارِ التّلاوة دونَ العلمِ في قولِه تعالَى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾؛ فلماذا لم يقُلْ: وهم يعلمون الكتابَ؟؛ والجوابُ أنّ ذلك من بابِ التَّهكُّمِ بهم؛ فإنَّ من شأن التَّالي أن يعلمَ، ومن شأن العالمِ أن يعملَ؛ فلمَّا خالفوا مقتضى العلمِ كانت تلاوتُهم بدون فائدةٍ؛ فكأنَّهم لا يتلونَ الكتابَ، أي: انظر إلى حالهم الّتي هُم عليها مع تلاوتِهم! وهذا المعنى لا يتَّضِحُ إلَّا بقرنِ الجملةِ الحاليَّةِ بما قبلها، وفي هذه الجملة هدايةٌ إشاريَّةٌ إلى مَنْ يتلو القرآنَ دون استفادَةٍ وعمل.

فَائدَةُ التَّشبيهِ بَيْن أَهْلِ الكتابِ والمُشْركين:

تقبيحُ صورةِ المُشبَّه به بتشبيه قولِ الضَّالين بقوله، وأنَّهما صادِران عن منهجٍ واحد

التَّشبيهُ المُستفادُ مِنَ الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَشبيهٌ في الادِّعاءِ على أَنَّهُم ليسُوا على شيءٍ، والتَّقديرُ: مِثل ذلك القولِ الّذي قالتهُ اليهودُ والنَّصارى قال الَّذين لا يعلمُونَ، ولهذا يكونُ لفظُ ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۗ﴾ تأكيدًا لما أفادَته كافُ التَّشبيهِ، وهو تأكيدٌ يُشيرُ إلى أَنَّ المُشابهةَ بينَ قولِ الَّذينَ لا يعلمونَ وقَولِ اليهود والنَّصارى مُشابهةٌ تامَّةٌ، والمعنى: أنَّ المُشركينَ كَذَّبُوا الأَديانَ كُلَّهَا اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ والإسلامَ؛ والمقصودُ مِنَ التَّشبيهِ تشويهُ المُشبَّهِ به بأَنَّه مُشابهٌ لقولِ أهلِ الضَّلالِ البَحْتِ[1]، ويُؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾، فإنَّ الجملةَ الحاليَّة أفادَت عدم انتفاعِهم بالكتابِ حين تلاوتِه، فهم والمُشركون الضَّالُّون سواء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/677.

سرُّ إيثارِ النَّفي على الإثباتِ:

تحقيق هدفين إشاريّين، الأوّل تعريضيٌّ بأهل الكتابِ، والآخر هدائيٌّ تلطُّفيٌّ بالمشركين

جاءتِ الآيةُ بنفيِ العلمِ عن المُشركين بقولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا بإثبات الجهلِ، وهو الأقبحُ ذكرًا، وسِرُّ ذلك يكمُنُ في أمرين:

الأوَّل: التَّعريضُ بأهل الكتاب؛ ذلك أنّهم يتطاولون على المُشركين بالعلمِ؛ فأتى بما يُنبِّههم على ذلك، أي: إذا كُنتُم تعلمون، فما بالُكُم تُشابِهون من لا يَعلَم؟!

الآخر: بناءُ قيمةٍ هدائيَّةٍ للمشركين بالتَّلطُّفِ معهم بنفي العلم عنهم، لا بإثبات الجهل لهم، فهو تحقيق هدفين إشاريّين، الأوَّل تعريضيٌّ بأهل الكتابِ، والآخر هدائيٌّ تلطُّفيٌّ بالمشركين.

فائدةُ حذفِ المفعولِ:

الإيماءُ إلى خُلوِّ المشركين من العلمِ بقطعِ النَّظرِ عن تعلُّقِه

حُذِفَ مفعولُ عَلِمَ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، إيمَاءً إلى أنّ الأهمّ هو خُلُوُّهم ممَّا يُعلم، أيًا كان ذلك المعلومُ كتابًا أو دينًا أو إلهًا أو نحوه، وهو ممَّا يتوافقُ مع نظرةِ أهل الكتاب المُستَعليَةِ على المشركين، فأهلُ الكتاب يَرَون أنفُسَهم أفضَلَ من المشركين باعتبار العلم، فالعلمُ عندَهم طبقيَّةٌ وِجاهيَّةٌ لا مقصَدٌ دينيٌّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

اجتماعُ نُكتَتَين؛ التَّشويقُ، والإيجازُ اللَّفظيُّ

قُدِّم حرفُ الجرِّ ومجروره ﴿كَذَلِكَ﴾ على متعلّقِه وهو الفعل ﴿قَالَ﴾؛ لنُكتَتَين؛ الأولى: تشويقُ السَّامعِ لمَا بعد التَّشبيه؛ فإنَّ ﴿كَذَلِكَ﴾ فيها تمهيدٌ لما سيُقال، وربطٌ سابِقِها بلاحِقِها، الأخرى: الإيجازُ اللَّفظيُّ في الاستغناء عن حرف العطف؛ فلم يقُلْ: وكذلك؛ "لأنّ مفادَ حرفِ العطفِ التّشريكُ، ومفادَ كافِ التّشبيهِ التّشريك؛ إذِ التّشبيهُ تشريكٌ في الصّفةِ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.

معنى الفاءِ:

الفاءُ قائِمةٌ على الرَّبطِ السِّياقيِّ تفريعًا وتقديرًا

تحتملُ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أن تكونَ استئنافيةً، وأن تكون فصيحةً، بتقدير: إذا كانوا مصرِّين على كُفرِهم فاللّه يحكُمُ بينهم، وأن تكونَ تفريعيَّةً، جيءَ بها؛ "لأنّ التّوعّدَ بالحكمِ بينهم يومَ القيامةِ، وإظهار ما أكنَّتْهُ ضمائرهم منَ الهوى والحسدِ متفرِّعٌ عن هذهِ المقالاتِ، ومُسبَّبٌ عنها، وهو خبرٌ مرادٌ به التَّوبيخُ والوعيدُ"[1]، والقولُ بأنَّها فصيحةٌ وتفريعيَّةٌ قويٌّ في هذا السِّياقِ، إذ هما متقاربان، ومرتبطان بما قبل، والمعنى في كليهما قائِمٌ على الرَّبطِ السِّياقيِّ تفريعًا وتقديرًا.

لفتةٌ في الإعجازِ الغيبيِّ:

الإشـــارةُ إلى الإعجازِ الغيبيِّ بـالإخبـار عـمَّا سيصدُر عنهم في الدُّنيا

نصَّتِ الآيةُ على أنَّ اللّه سيحكُمُ بينهم يوم القيامة، فإنَّ ﴿يَحۡكُمُ﴾ فعلٌ مضارعٌ يدُلُّ على الاستقبال، وتؤيدُه القرينةُ اللّفظيَّة، وهي ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: أنّ الحكم يكون في ذلك اليوم، وفيه لفتةٌ إعجازيَّةٌ في الإخبار عن غيب المُستقبَل البعيد، "فكون الحكم سيكون بينهم يوم القيامة، فذلك يُشعر أنّه لا أملَ في تزحزحهم عن مواقفهم"[2]، وهذا بحمل عدمِ الإيمان والإصرارِ على الكُفرِ على من بقي متَّصِفًا بذلك، أي: على مجموعِهم لا على جميعِهم.

علَّةُ تقديمِ الظُّروفِ بعضها على بعضٍ:

الإشـــارةُ إلى أهميـة الحكمِ بين المختلفين، وهـو العـنصرُ الأبرزُ في السِّياق

قُدِّم الظَّرفُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على الظَّرف الزَّمانيِّ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقُلْ: (يحكمُ يومَ القيامةِ بينهم) إشارَةً إلى أهميَّتِه، فلمَّا كان سِياقُ الآياتِ في بيان الحقِّ من الباطلِ في اختلاف الأمم والأقوام، قُدِّم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ لأنَّه العنصرُ الأبرزُ في السِّياق على زمن الحكم، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.
(2) سعيد محمد، الأساس في التّفسير: 1/222.

يوم القيامة، والحكم هنا "أنّهُ يحقُّ الحقَّ، ويجعلُ أهلهُ في النَّعيمِ، ويبطلُ الباطلَ، ويلقي بأَهله في الجحيمِ"[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارِع:

استحضارُ صورةِ الاختلافِ الصَّادرِ عن الكافرين؛ زيادةً في النَّقمةِ والحسرةِ

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل المُضارعِ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ الدَّالِّ على الحال والاستقبال، مع أنَّ الحديثَ عمَّا كان بين القومِ في الماضي؛ لاستحضارِ صورةِ الاختلافِ الّذي كان بينهم في الدّنيا، ونكتةُ ذلك زيادةُ مقتِهم لأنفسِهم، والحسرَةُ عمَّا صدر عنهم؛ فإذا استحضرَ المجرِمُ جريمتَه زادَه ذلك نقمةً على أفعالِه.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على الفعل:

بيانُ الاختصاصِ والقَصرِ الادّعائيِّ للمُبالغةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفعل تقديمًا جائزًا؛ لجواز قوله: (يختلفون فيه)؛ لأنّه أرادَ الاختصاصَ والقَصرَ، وهو قصرٌ ادّعَائيٌّ للمبالغةِ؛ فكأنَّ حكمَ اللّه تعالى سيكونُ فيما اختلفوا فيه فحسب، وكأنّه لم يكن لهم من ذنب سوى ذلك الاختلاف؛ ففيه تشنيعٌ لاختلافِهم، وتقبيحٌ لموقفِهم من الإسلامِ، ما لا مزيدَ عليه.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/353.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»